ح٤

## ٣ـ في مغزى البسملة عند قراءة القرآن وسائر الأفعال

**الإيضاح الثالث:** في مغزى البسملة عند قراءة القرآن وسائر الأفعال، وهذه نكتة معرفية معنوية.

**بيانها:** أنّ ذكر اسم الله سبحانه عند الأقوال والأفعال استحضار لما هو الواقع، ولذا يكون هذا الأدب ملائماً لمقام الواقع والتكوين ملائمة فطرية مشهودة.

توضيحه بذكر أمرين:

١-إنّ من الواضح أنّ هذا الكون والمشهد الكوني بجميع تفاصيله من صناعة الإله الخالق، فكلّ شيء فيه هو من صنعه وإبداعه، وكل فعل وانفعال فيه جارٍ بإذنه ووفق سننه، ولئن كان هناك خيار للإنسان في أن يفعل أو يترك فإنّ فعله وتركه كله بإذن الله تعالى ومدده واستثمار لسننه وللأسباب التي رتبها، وهو أمر واضح بالتأمل في حقيقة علاقة الله سبحانه الخالق بهذا المشهد وبما تضمّنه من الكائنات، كما تتضمن الآيات الشريفة بشكل متواتر التأكيد على هذا المعنى.

إذاً كل شيء وكل فعل في هذه الحياة هو من الله سبحانه.

٢-إنّ من المعلوم أنّ هوية الأشياء إنّما هي جزء من هوية فاعليها، فكل من ابتكر شيئاً كان ابتكاره مقروناً باسمه، وكل من ألّف كتاباً كان كتابه مقروناً بذكره، وكل من رسم لوحة فنية كانت اللوحة مضافةً إليه، وكل من أنجز شيئاً كان إنجازه

جزءاً من شخصيته، وكل من أولد ولداً فإنّ هذا الولد منسوب إليه، ومن دون ذلك تكون الأشياء في هالة من الإبهام، كالكتاب الذي لا يُضاف إلى مؤلفه، والولد الذي لا يُنسب إلى أبيه، والإنجاز الذي لا ينسب إلى فاعله.

ولذلك يصحّ القول إنّ الإنجاز على وجه عام جزء من هوية الفاعل وشخصيته، كما أنّ الانتساب التكويني إلى الفاعل جزء من هوية الفعل في الشعور الفطري.

وعليه يتضح أنّ هذا الكون حيث كان بكل ما فيه من أشياء وأمور من صناعة الله سبحانه وإبداعه وخلقه وترتيبه وسننه فهو كله مقرون باسمه.

وعلى ضوء هذين الأمرين يتضح أنّ قرن كل شيء باسم الله سبحانه من قبيل ملاءمة الأدب مع الواقع والتكوين، وهو ما يجعل هذا الأدب ملائماً للفطرة التي يجدها الإنسان بعد انتباهه إلى علاقة الأشياء والأفعال كلها بالله سبحانه.

إذاً الأشياء كلها في هذا المشهد بكلّه وتمامه هي من الله سبحانه، وإن كان قد يخفى ذلك علينا من جهة شدة وضوح الأمر، لأننا جزء من هذا المشهد فلا ندرك واقعه إلا إلى أن نعي ونرتقي بتفكيرنا إلى أفق أوسع، فهذا المشهد بسننه وكائناته وأفعاله التي نفعلها نحن من قراءة وكتابة وسير وتكلم وغيرها إنّما هو بالأدوات المخلوقة وبالسنن التي صنعها الله سبحانه وبالغرائز وبالترتيبات التي رتّبها سبحانه لنا وكذلك لغيرنا من الكائنات المختارة كالملائكة أو الجن، ولذلك فإنه ما

من فعل جميل أو عمل حسن إلّا وهو منسوب إلى الله سبحانه بنحوٍ، قال سبحانه: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[1]، ولا يستلزم هذا المعنى الجبر، لأنّ للإنسان هامشاً من الاختيار على شرح وجداني فطري يأتي ذكره في محله، فلا نريد أن نجمع جميع النكات هنا.

الحاصل: أنّ كل شيء هو منسوب إلى الله سبحانه ومقرون به تعالى، فجاء ذكر اسم الله تعالى عند القول والفعل الحسن والمباح، فالبسملة عند الأفعال والأقوال أدب ملائم لمقتضى الحال، فإنّ الأشياء حقاً كلها من الله تعالى، ونحن لو فرضنا أنفسنا خارج الوجود وتأملنا هذا الوجود الواسع وشهدنا حدوث هذا الوجود وأنّ الله سبحانه أوجده بأن جُمعَت لنا هذه الصناعة الإلهية في ملايين السنين، ولُخصَت لنا وقُرّبت لنا المسافة ـ مثلما في بعض المقاطع المرئية يقرّبون ويسرّعون المقطع ـ فسوف نرى بشكل واضح علاقة الأشياء بالله سبحانه وتعالى، لكن وجودنا في جزء ضئيل من مدة الكون ومعاشرتنا لظاهر الحياة هو الذي يؤدي إلى ضبابية رؤيتنا لهذا المشهد، فحتى أنّنا لو وصفنا المشهد بما ذكر فربما نصفه ألفاظاً ولا نستطيع أن ندرك ونعي كنهه وعمقه الذي يصفه الله سبحانه، قال تعالى:

---

(١) سورة النساء: آية ٧٩.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[١]، فكل حمد حقاً فهو لله سبحانه، كل جميل فهو منه تعالى، فهو صانع هذا المشهد وصاحبه.

ويمكن أن نعبّر بتعبير آخر عما تقدّم لمزيد التقريب والتوضيح، وهو أنّ كل شيء في هذا الكون حيث إنّه خلق الله سبحانه وصنيعه وبمدده فكأنّه مكتوب عليه أنّه من صنع الله تعالى، وكل فعل في هذا الكون حيث إنّه جارٍ على استثمار السنن التي سنّها والمدد الذي يفيضه سبحانه فكأنّه مكتوب عليه أنّه يجري بإذن الله تعالى ومدده، وكما تكتب على السلع أنّ هذا صُنْعُ البلدِ الفلاني والشركة الفلانية فالأشياء كلها بذاتها والأفعال كلها تنتمي إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن الكتابة عليها ليست ثبتاً خارجياً، بل هي متمثلة في ذاتها نابعة من عمق وجودها من حيث ارتباطها بالله سبحانه واستمدادها منه كما قال عز من قائل: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[٢]، وقال عزّت آلاؤه: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٣].

---

(١) سورة الروم: آية ١٨.

(٢) سورة النمل: آية ٨٨.

(٣) سورة لقمان: آية ١٠ـ١١.

إذاً كل شيء بذاته موسوم بسمة أنّه خلق الله سبحانه وصنعه، فهذه الأشياء التي نراها كلها خلق الله تعالى، وكل الأفعال هي معبأة في الأشياء من خلال ما أودَع فيها من قوى وإمكانات ومبادئ، فهي تكون فاعلة فيما تصدر منها: إما بشكل ضروري ما لم تحل دونها الإرادة الإلهية كالأفعال الطبيعية وكالأفعال الغريزية للحيوانات، وإما بضميمة استثمار اختياري لتلك القوى والإمكانات، كما في أفعال الكائنات المختارة من الملائكة والإنسان والجن فإنّ أفعالها كلها استثمار لقوى وإمكانات ومبادئ مودعة فيها قائمة بمدد فعلي من الله سبحانه وتعالى، ولذلك كان قرن اسم الله تعالى بكل شيء تطابقاً بين الأدب والواقع وبين التشريع والتكوين.

إذاً البسملة وتسمية الله تعالى عند كل فعل وقول وإنجاز هو أدب مناسب لمقتضى الحال.

ويتحصّل أنّ البسملة أدب، والآداب رموز للحقائق، فهي تأتي ملائمة معها، وقرن القول والفعل باسم الله تعالى لهو موافقة مع الحقائق، لأنّ الله سبحانه هو الخالق لهذا القائل والفاعل ولكل ما يتمتع به، ومنها النعم والسنن التي ينتفع بها في ممارسة الفعل أو القول، فهو إنّما يقول ويفعل بحول الله تعالى وقوته.

ويتفرع على هذا التأصيل أمور ثلاثة:

١- توافق الحث التشريعي على هذا الأدب مع التكوين فقد عرفنا أنّ البسملة كما ابتُدئ بها في القرآن الكريم فإنها حسب الاستلهام منها وحسب دلالة النصوص النبوية أدب مستحب في مقام سائر الأفعال والأقوال وحيث عرفنا أنّ

الأشياء والأفعال كلها مضافة إلى الله تعالى نستنتج أنّ الترغيب التشريعي إلى هذا الأدب جاء موافقاً مع التكوين القائم للأشياء.

وعليه يندرج هذا الاستحباب التشريعي لأدب البسملة والتسمية في قاعدة ملحوظة في التشريعات الدينية وهي أنها تأتي دائماً ملائمة مع ما فُطرت عليه الأشياء وترتبت عليه وهذه قاعدة سنوضحها في موضع مناسب لها إن شاء الله وننبه على مصاديقها في محلها.

ومما يناسب ذكره في هذا السياق نهي الله سبحانه عن ظاهرة التبنّي.

وبيان ذلك: أنّ ظاهرة التبني كانت معروفة في الجاهلية، فكانوا ينسبون العبيد إلى مواليهم، وكان الأمر جارياً على هذا المنوال، ومن هذا الباب نسبة زيد بن حارثة إلى النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فكانوا يقولون عليه زيد بن محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

ولكنّ الله سبحانه كره ذلك فأنزل في سورة الأحزاب ـ التي نزلت في المدينة بعد استقرار وتثبّت وضع المسلمين فيها بدفعِ آخر جهدٍ لمحوِهم عن الوجود من خلال حرب الأحزاب ـ: ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ**﴾[1]،

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٤ـ٥.

فجعل سبحانه أنّ من القسط أن ينسب الناس إلى آبائهم، لأنّ آباءهم هم الذين أولدوهم.

وقد كان هناك اهتمام كبير من الله سبحانه بهذا الموضوع، حتى أنّه تعالى لأجل الاهتمام بهذا الشيء أوجب على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) الزواج من طَليقة زيد الذي كان ابنه بالتبني رغماً عن رغبته (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عن أن يتزوجها ولحرجه من ذلك؛ إذ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كان أرقى نفسياً من أن يرغب في مثل ذلك، أو يقدم عليه وكان إنساناً حَييّاً، كما كان أحرص ما يكون على نقاء الرسالة من أن تشوبها شائبة من هذا القبيل، إذ كان المشركون والمنافقون يقولون في ما إذا فعل بأنّ محمداً (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يرغب في (زوجة ابنه) لأنّهم يعتبرون زيداً ابنه بالتبني[1].

---

(١) وقد جاء في بعض روايات قصص أهل السنة أنّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) جاءها مثلاً إلى الغرفة ورآها بزينتها فأعجب بها وأخذت من نفسه مأخذاً! ـ حاشاه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عن مثل ذلك ـ كيف! وهو الذي ترك أجمل نساء العرب رغم أنه أصبح بمثابة الملك على الجزيرة العربية، بل جمع وعاشر عدة نساء أغلبهن من الأيامى والأرامل ومنهن من لا تُحمد أخلاقها ويصعب العيش معها أصلاً، حتى عوتبنَ كثيراً في الآيات الشريفة وهُدِّدنَ بأنّه سوف يُطلّقهن إذا أسأن التعامل معه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ﴿**عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا**﴾ (سورة التحريم: آية ٥) أو كنّ يردن الدنيا وزينتها (سورة الأحزاب: آية ٢٨)، وقد نُهينَ نواهٍ شديدة عن أمور غير ملائمة ممن تكون في موقعهن مثل تبرجهن تبرج الجاهلية الأولى، ومن الملفت أنه لم يُنهَ نساء أهل البيت (عليهم السلام) وبناته (صلّى

فجاءت الآية تلزمه بالزواج من طليقة زيد، وبعد أن تزوجها النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أبان الله سبحانه عن عذر نبيه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالآية الشريفة: ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا**﴾، ثم قال سبحانه: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾[1]، وهكذا نلاحظ الإصرار على أن ينسب الولد إلى أبيه، كما هو منسوب إليه تكويناً ليكون الانتماء والتشريع الذي ينظمه على وفق التكوين، فذاك هو الموافق مع القسط والعدل لما فيه من مراعاة حق الأب والأدب معه، فهذا مثال لموافقة التشريع مع التكوين.

---

الله عليه وآله وسلّم) عن مثلها وإن ذكرن في آية الجلباب ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ**﴾ (سورة الأحزاب: آية ٥٩).

فالمقصود أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) رغم أنه قد أصبح سيد العرب بلا منازع، تتقرب الأقوام بأن تهدي بناتها وتقدّمها إليه، تجنّب عن أن يتوسع في هذا الشأن واكتفى بنسائهن على هذا المثال، فكيف يرغب في زوجة ابنه، ولكن من الغريب أن يطرح الطعن على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في مثل هذا الأمر أو في تعدد أزواجه من غير التفات إلى المنهج الملائم والموازين المناسبة في تأمل هذا الموضوع.

(١) سورة الأحزاب: آية ٤٠.

٢- موافقة هذا الأدب مع الحقوق الفطرية الأخلاقية، وذلك بأنّ الله سبحانه هو صاحب الحق على الإنسان في تيسير هذا القول والفعل كما هو ظاهر، فكان من الأدب استحضار هذا المعنى إيفاء بهذا الحق وشكراً عملياً لله سبحانه فيما يسّره وأنعم به على الإنسان وتنبيهاً له على مواضع نعم الله سبحانه عليه، حيث إنّ الإنسان الذي ينشأ في بيئة هي في أصلها وكل جزء منها نعمة من الله سبحانه يغفل عن هذا البعد والاستحقاق الملائم له، كما يغفل بعض الأولاد عن مواضع إنعام الوالدين عليهم من جهة نشأته في بيئة مفعمة بالإنعام، ولو فقد الإنسان أحد والديه أو اختلف حالهما شعر بعظم النعمة التي كان ينالها منهما.

وقد نبّه الله سبحانه الإنسان على عظم نعمه في هذه الحياة وعتب عليه غفلته وكفرانه قال سبحانه: ﴿**قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾[1]، كما نبه الإنسان على أنه سوف يشعر بالنعمة إذا فقدها: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٣٢ـ ٣٤.

**مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[١].

٣- موافقة هذا الأدب مع سنن البركة في الأعمال، والبركة هي النماء المترتب على العمل وآثاره الإيجابية والبناءة في هذه الحياة وما بعدها، وقد ضرب الله سبحانه مثلاً للعمل المبارك الحكيم قال سبحانه: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾**[٢]، وعليه فإنه متى كان فعل الإنسان مبنياً على الحقائق الماثلة والمبادئ الأخلاقية الفاضلة جارياً وفق سنن الاستحقاق والأدب والشكر، فإنه يوجب نماءً وبركةً وآثاراً مُثلى محمودة فهو كشجرة طيبة، وبذلك يكون ذكر البسملة والتسمية قبل القول والفعل موجباً لبركة العمل لموافقته مع الحقائق والحقوق على ما بيناه، وبمجموع ما ذكرناه في هذا الإيضاح ظهر أنّ سنن التكوين والتشريع والنماء والبركة كلها يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، والبسملة مثال لهذه القاعدة العامة.

---

(١) سورة القصص: آية ٧١ـ ٧٣.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٢٤ـ ٢٥.